الاستنساخ بين العلم و الدين: ما حكم الاستنساخ فـى الاسـلام

يوسف عبدالله القرضاوى

الاستنساخ فى النبات والحيوان لا بأس به، بل قد يكون مطلوبا، لأنه تحسين للسلالة ، أما الاستنساخ فى البشر فممنوع شرعا، لأن الله تعالى خلق الحياة على أساس الزوجية ، فكل شىء فيه زوج ، كما أن فى الاستنساخ البشرى مفاسد عديدة ، وهو تغيير لخلق الله تعالى . وذلك إذا كان الاستنساخ لبشر كامل ، أما إن كان استنساخ لبعض الأعضاء كالقلب أو الكبد ،فلا باس به ، على أن الاستنساخ ليس إحياء ولا خلقا جديدا ، فهو يأخذ مادة الحياة التى خلقها الله تعالى ويصنع شبيها لها . يقول فضيلة الشيخ القرضاوى حفظه الله : يقول الشاعر العربى: والليالى من الزمان حبالى ... مثقلات يلدن كل عجيب! وإذا كانت الليالى فى الأزمنة الماضية تلد العجائب، فهى فى زماننا أكثر وأسرع ولادة لكل عجيب وغريب، مما لم يخطر ببال الإنسان، ولم يحلم به مجرد حلم فى العصور السالفة، وذلك بفضل تقدم العلم الذى علمه الله للإنسان "علم الإنسان ما لم يعلم" العلق: ٥. حتى أضحى الإنسان يشق أغوار الفضاء، وينزل على سطح القمر، ويطمح للوصول إلى الكواكب الأبعد. ولقد قدر لنا أن نشهد كثيراً من العجائب فى حياتنا، ابتداء من المذياع والتلفاز، ثم الكومبيوتر وغزو الفضاء، وانتهاء بالإنترنت، ومروراً بالثورة البيولوجية الهائلة، ثورة الهندسة الوراثية، التى جريت بتوسع فى عالم النبات، ثم بقدر أضيق فى عالم الحيوان، ثم دخلت عالم الإنسان!. ولقد أصبح الكثير ممن يتخوفون من وثبات العلم إذا انطلق وحده بمعزل عن الإيمان والأخلاق، فقد يعود العلم عندئذ خطراً على الإنسان، بدل أن يكون نعمة له. ومنذ سنوات عقدت فى جامعة قطر وكلية العلوم فيها، ندوة علمية، تساءلت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم وجمعية الدعوة الإسلامية بليبيا، وكان موضوعها: الهندسة الوراثية وموقف الدين والأخلاق والقانون منها. وانتهت الندوة بعدد من التوصيات دارت حول التحذير من انطلاق العلم بعيداً عن قيم الدين والأخلاق ورعاية المصلحة للبشر، واتخاذه أداة لسيطرة بعض الناس على بعض، والعبث بفطرة الله التى فطر الناس عليها، ومحاولة تغيير خلق الله، وهو من عمل الشيطان. الاستنساخ ومخاطره ولقد بدأت المخاوف التى خشيها الناس من تطور الهندسة الوراثية، تظهر فيما عرف اليوم باسم (الاستنساخ) حيث تم هذا الإنجاز فى دنيا الحيوان فى صورة النعجة (دوللى) الشهيرة، التى لم تولد من التقاء الذكر والأنثى أو الكبش والنعجة، أو التقاء الحيوان المنوى الذكرى بالبيضة الأنثوية، كما هو المعتاد فيما خلق الله من حيوان وإنسان. ولكنهم أخذوا بويضة من هذه النعجة المعينة، وفرغوها من نواتها، أى نزعوا منها النواة تمامًا، ثم جاءوا بخلية حية من جسم النعجة، ووضعوها مكان النواة، فانقسمت وتكاثرت، كما فى البيضة الملقحة، بعد أن وضعت فى رحم الشاة، وتم النمو الجنينى المعتاد، حتى ولدت شاة كاملة، مشابهة للشاة التى استنسخت منها تمام المشابهة. أى مشابهة التوأم للتوأم إذا كانا من بويضة واحدة. وبهذا أمكن تخليق نسخة أخرى طبق الأصل من النعجة التى أخذت منها البويضة، وفى الإمكان استنساخ نعجات أو نسخ أخرى مطابقة تمام المطابقة للنعجة الأصلية فى جسمها وشكلها ولونها وحجمها ونوع صوفها.. الخ. ومنذ نجح الاستنساخ فى عالم الحيوان، أصبح الاستنساخ فى عالم الإنسان فى دائرة الإمكان، وغدا هذا الأمر مخوفًا لدى الكثيرين فى أنحاء العالم، وقبله أناس، ورفضه آخرون، بعضهم من رجال العلم أنفسهم، وأكثرهم من الذين يهتمون بالدين والأخلاق والقيم الإنسانية، ومصير البشرية. ويقول بعض الناس: إنهم يجربون ذلك سراً على الإنسان، دون إعلان الآن، حتى إذا أنجزوا ما ينشدونه أعلنوه. موقف الإسلام من الاستنساخ ومن أجل ذلك تساءل الناس فى عالمنا الإسلامى عن موقفنا نحن– المسلمين–،

وبعبارة أدق: عن موقف ديننا وشريعتنا من هذا الأمر الجديد: أتجيزه شريعتنا بإطلاق؟ أم تمنعه وتحرمه بإطلاق؟ أم تجيزه ببعض الضوابط والقيود؟ وأود أن أجيب هنا بأن الإسلام يرحب عمومًا بالعلم والبحث العلمى، ويرى من فروض الكفاية على الأمة المسلمة أن تتفوق فى كل مجال من مجالات العلم الذى تحتاج إليها الأمة فى دينها أو دنياها، بحيث تتكامل فيما بينها، وتكتفى اكتفاء ذاتيًا فى كل فرع من فروع العلم وتطبيقاته، وفى كل تخصص من التخصصات، حتى لا تكون الأمة عالة على غيرها. ولكن (العلم) فى الإسلام، مثله مثل العمل، والاقتصاد والسياسة والحرب، كلها يجب أن تتقيد بقيم الدين والأخلاق، ولا يقبل الإسلام فكرة الفصل بين هذه الأمور وبين الدين والأخلاق، كأن يقول قائلون: دعوا العلم حراً، ودعوا الاقتصاد حراً، ودعوا السياسة حرة، ودعوا الحرب حرة، ولا تدخلوا الدين أو الأخلاق فى هذه الأمور، فتضيقوا عليها، وتمنعوها من النمو والانطلاق وسرعة الحركة. إن الإسلام يرفض هذه النظرة التى أفسدت العلم والاقتصاد والسياسة، ويرى أن كل شىء فى الحياة يجب أن يخضع لتوجيه الدين، وكلمة الدين، فكلمة الدين هى كلمة الله، وكلمة الله هى العليا، ومن المنطقى أن تخضع كلمة الإنسان المخلوق لكلمة الله الخالق سبحانه. وكلمة الله هى أبدًا كلمة الحق والخير والعدل والجمال. الاستنساخ فى عالم الحيوان جائز بشروط ونحن إذا نظرنا إلى قضية الاستنساخ، فنحن نجيزه فى عالم الحيوان بشروط: الأول: أن يكون فى ذلك مصلحة حقيقية للبشر، لا مجرد مصلحة متوهمة لبعض الناس. الثانى: ألا يكون هناك مفسدة أو مضرة أكبر من هذه المصلحة، فقد ثبت للناس الآن –ولأهل العلم خاصة– أن النباتات المعالجة بالوراثة إثمها أكبر من نفعها، وانطلقت صيحات التحذير منها فى أرجاء العالم. الثالث: ألا يكون فى ذلك إيذاء أو إضرار بالحيوان ذاته. ولو على المدى الطويل، فإن إيذاء هذه المخلوقات العجماوات حرام فى دين الله. الاستنساخ فى مجال البشر لا يجوز إذا عرفنا ذلك فى عالم النعاج والكباش أو عالم الحيوان بصفة عامة، فما الحكم فى دخول الاستنساخ فى عالم الإنسان، ومحاولة استنساخ بشر من آخر على طريقة النعجة (دوللى) بحيث يمكننا أن نستنسخ من الشخص الواحد عشرات أو مئات مثله، بدون حاجة إلى أبوين ولا زواج ولا أسرة، بل يكفينا أحد الجنسين من الذكور أو الإناث، نستغنى عن الجنس الآخر، وبهذا تستطيع البشرية أن تستنسخ من الأشخاص الأذكياء عقلاً، والأقوياء جسمًا، والأصحاء نفسًا، ما شاءت من الأعداء، وتتخلص من الأغبياء والضعفاء والمهازيل من البشر؟ وهنا نقول: إن منطق الشرع الإسلامى –بنصوصه المطلقة، وقواعده الكلية، ومقاصده العامة– يمنع دخول هذا الاستنساخ فى عالم البشر، لما يترتب عليه من المفاسد الآتية: الاستنساخ ينافى التنوع أولاً: إن الله خلق هذا الكون على قاعدة (التنوع) ولهذا نجد هذه العبارة ترد فى القرآن كثيراً بعد خلق الأشياء والامتنان بها على العباد (مختلف ألوانه) فاختلاف الألوان تعبير عن ظاهرة (التنوع). وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء" . والاستنساخ يناقض التنوع، لأنه يقوم على تخليق نسخة مكررة من الشخص الواحد، وهذا يترتب عليه مفاسد كثيرة فى الحياة البشرية والاجتماعية، بعضها ندركه، وبعضها قد لا ندركه إلا بعد حين. تصور فصلاً من التلاميذ المستنسخين، كيف يميز المدرس بين بعضهم وبعض؟ كيف يعرف زيدًا من عمرو من بكر؟ وكيف يعرف المحقق من ارتكب جرمًا من غيره، والوجوه واحدة، والقامات واحدة، والبصمات واحدة؟ بل كيف يعرف الرجل زوجته من غيرها والأخرى نسخة مطابقة لها؟ وكيف تعرف المرأة زوجها من غيره، وغيره هذا صورة منه؟ إن الحياة كلها ستضطرب وتفسد، إذا انتفت ظاهرة التنوع واختلاف الألوان، الذى خلق الله عليه الناس. علاقة المستنسخ بالمستنسخ منه: ثم هناك سؤال محير عن علاقة الشخص المستنسخ بالشخص المستنسخ منه: هل هو نفس الشخص باعتباره نسخة مطابقة منه أو هو أبوه أو أخ توأم له؟ هذه قضية مربكة. ولا شك أن هذا الشخص غير الآخر، فهو –وإن كان يحمل كل صفاته الجسمية والعقلية والنفسية– ليس هو الآخر، فهو بعده بزمن قطعًا،

وقد يحمل كل صفاته لكن تؤثر البيئة والتربية فى سلوكه ومعارفه، فهذه أمور تكتسب، ولا تكفى فيها العوامل الوراثية وحدها. وإذن يكون شخصًا غير الشخص المستنسخ منه، ولكن ما صلته به: أهو ابن أم أخ أم غريب عنه؟ هذه مشكلة حقًا. قد يقول البعض ببنوته، لأنه جزء منه، وهذا مقبول إذا وضع فى رحم المرأة وحملته وولدته، كما قال تعالى: "إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم" . ومعنى هذا أن يكون له أم ولا أب له!! وقد يقول آخر: إنه أخ توأم للمستنسخ منه، بمثابة التوأمين المخلوقين من بويضة واحدة، ولكن الأخوة فرع عن الأبوة والأمومة، فكيف ينبت الفرع ولم ينبت الأصل؟ وهذا كله يوجب علينا أن ننكر العملية من أصلها لما يترتب عليها من مفاسد وآثام، ظهر بعضها، وبقى كثير منها فى رحم الزمان. مفاسد أخرى محتملة: ثم إن الاستنساخ يعرض (القطيع المستنسخ) للعدو السريع، وربما للهلاك السريع، إذا أصيب واحد منهم يمرض، فسرعان ما يصاب مجموع المستنسخين بهذا الداء، وقد يقضى عليهم مرة واحدة، لأن مجموعهم –وإن كانوا كثرة فى العدد– بمثابة شخص واحد. ومن ناحية أخرى لا يؤمن أن يستخدم الاستنساخ فى الشر، كما استخدمت (القوة النووية) وغيرها فى التدمير وإهلاك الحرث والنسل. فما الذى يضمن لنا ألا تأتى بعض القوى الكبرى أو من يقلدها فتستنسخ جيشًا من الأقوياء والعمالقة لتحسن به الآخرين؟ وما الذى يضمن لنا أن تأتى بعض هذه القوى الكبرى وتستخدم نفوذها، لمنع الآخرين من هذا الاستنساخ، وتحرمه عليهم، فى حين تحله لنفسها، كما فعلوا فى (الأسلحة النووية)؟ الاستنساخ ينافى سنة (الزوجية) على أن الاستنساخ بالصورة التى قرأناها وشرحها المختصون: ينافى ظاهرة (الازدواج) أو سنة (الزوجية) فى هذا الكون الذى نعيش فيه. فالناس خلقهم الله أزواجًا من ذكر وأنثى، وكذلك الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات، بل كذلك النباتات كلها. بل كشف لنا العلم الحديث أن الازدواج قائم فى عالم الجمادات، كما نرى فى الكهرباء ، بل إن (الذرة) –وهى وحدة البناء الكونى كله– تقوم على إلكترون وبروتون، أى شحنة كهربائية موجبة، وأخرى سالبة، ثم النواة. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الظاهرة حين يقول: "وخلقناكم أزواجًا" ، "وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى" . ويقول: "سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون" . ويقول: "ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون". ولكن الاستنساخ يقوم على الاستغناء عن أحد الجنسين، والاكتفاء بجنس واحد، حتى قالت إحدى النساء الأمريكيات: سيكون هذا الكوكب بعد ذلك للنساء وحدهن. وهذا ضد الفطرة التى فطر الله الناس عليها. وليس هذا فى مصلحة الإنسان بحالة من الأحوال. فالإنسان بفطرته محتاج إلى الجنس الآخر، ليس لمجرد النسل، بل ليكمل كل منهما الآخر، كما قال تعالى: "بعضكم من بعض" . وليستمتع كل منهما بالآخر، كما قال تعالى فى تصوير العلاقة الزوجية: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" البقرة: ١٨٧. ولهذا حينما خلق الله آدم وأسكنه الجنة، لم يبقه وحده، ولو كان فى الجنة، بل خلق له من نفسه زوجًا ليسكن إليها، كما تسكن إليه، وقال له: "اسكن أنت وزوجك الجنة" البقرة: وإذا كان كل من الرجل والمرأة فى حاجة إلى صاحبه ليسكن إليه، وتقوم بينهما المودة والرحمة، فإن ذريتهما أشد ما تكون حاجة إليهما، أى إلى جو الأسرة، إلى الأمومة الحانية، وإلى الأبوة الراعية، إلى تعلم الفضائل من الأسرة، فضائل المعاشرة بالمعروف، والتفاهم والتناصح والتباذل، والتعاون على البر والتقوى. وقد علم الناس أن أطول الطفولات عمراً هى الطفولة البشرية التى تمتد لسنوات، يكون الطفل فيها فى حاجة إلى أبويه وإلى أسرته ماديًا وأدبيًا. ولا تتم تربية الطفل تربية سوية مكتملة إلا فى ظل أبوين يحبانه ويحنوان عليه، وينفقان الغالى والرخيص حتى يكتمل نموه، وهما فى غاية السعادة بما يبذلان لأولادهما، دون منٍّ ولا أذى. والاستنساخ لا يحقق سكن كل من الزوجين إلى الآخر، كما لا يحقق الأسرة التى يحتاج الطفل البشرى إلى العيش فى ظلالها وحماها، واكتمال نموه تحت رعايتها ومسئوليتها، فكل من الأب والأم راع فى الأسرة ومسئول عن رعيته. استخدام الاستنساخ فى العلاج يأتى هنا أمر يسأل الناس عنه، وهو مدى جواز إمكان عملية الاستنساخ فى العلاج لبعض الأمراض. ولا أدرى المقصود من هذا بالضبط، فإن كان المقصود استنساخ (إنسان) أو

(طفل) أو حتى (جنين) لتؤخذ فيه (قطع غيار) سليمة، تعطى لإنسان مريض، فهذا لا يجوز بحال؛ لأنه مخلوق اكتسب الحياة الإنسانية –ولو بالاستنساخ– فلا يجوز العبث بأجزائه، ولا بأعضائه، ولو كان فى المرحلة الجنينية، لأنه قد أصبحت له حرمة. ولكن إذا أمكن استنساخ أعضاء معينة من الجسم مثل القلب أو الكبد أو الكلية، أو غيرها، ليستفاد منها فى علاج آخرين محتاجين إليها، فهذا ما يرحب به الدين، ويثيب عليه الله تبارك وتعالى، لما منه من منفعة للناس، دون إضرار بأحد أو اعتداء على حرمة أحد. فكل استخدام من هذا القبيل فهو مشروع، بل مطلوب، طلب استحباب، وربما طلب إيجاب فى بعض الأحيان، بقدر الحاجة إليه، والقدرة عليه. ملاحظتان مهمتان وأحب أن أنوه هنا إلى ملاحظتين مهمتين حول قضية الاستنساخ: الأولى: أن الاستنساخ ليس كما يتصوره أو يتوهمه بعض الناس(خلقًا للحياة) إنما هو استخدام للحياة التى خلقها الله تبارك وتعالى، فالبويضة التى نزعت منها نواتها من خلق الله تعالى، والخلية الحية التى غرست فى البويضة بدل النواة من خلق الله تعالى. وكلتاهما تعمل فى محيطها وفق سنن الله تعالى، التى أقام عليها هذا العالم. والثانية: أن فكرة الاستنساخ أفادت الدين فى تقريب عقيدة أساسية من عقائد الدين، وهى عقيدة البعث، وإحياء الناس بعد موتهم لحسابهم وجزائهم فى الآخرة، فقد كان المشركون قديمًا، والماديون إلى اليوم، يستبعدون فكرة البعث بعد الموت، وأن يعود الإنسان نفسه إلى الحياة مرة أخرى. وقد قربت ظاهرة الاستنساخ الأمر، أنه بواسطة بويضة وخلية يعود الإنسان نفسه بصورة جديدة إلى الحياة، فإذا كان هذا أمرًا قدر عليه الإنسان، أ فيستبعد على قدرة الله أن تعيد الإنسان مرة أخرى إلى الحياة بواسطة ما سمى فى الحديث بـ (عجب الذنب) الذى لا يفنى من الإنسان، أو بغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه؟ "وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. "